

الفصل الأول



المسؤولية الاجتماعية
في الطفولة المبكرة

المسؤولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

أولاً: ما الذي نعرفه عن الأطفال

لم تنل الطفولة ورعاية الأطفال وكذلك الأبحاث التربوية التي تعني بهم، سوى القليل من العناية والرعاية ولم يهتم بها سوى فئة قليلة من علماء النفس وكذلك الحال بالنسبة لأمر تعليمهم وكيف يتعلمون... وقد يكون سبب هذا العزوف عن ذلك أن تعلم الأطفال والأسلوب الذي يتم به أمر يصعب تحقيقه . وأستجلاء حقيقته.

يرى بياجيه أن أي اهتمام بالأطفال وبرعايتهم والعمل على نموهم وتعلمهم وتطورهم أمر يتوقف على المرحلة الزمنية التي يبلغون فيها مستوى النضج الكافي في مختلف مجالات النمو، ويصبحون عندها مخلوقات تستحق

منا الرعاية اللازمة، فهم في نظرنا وقبل أن يبلغوا هذه المرحلة من النمو ليسوا أكثر بكثير من فقاعة هواء سرعان ما تزول ولا تستحق الرعاية أو الاهتمام.

أما في الوقت الراهن فقد تغيرت النظرة إلى هذا الأمر بشكل شامل، حيث أصبح الاهتمام بالأطفال ميداناً هاماً للبحث والدراسة يتناول حياتهم في طفولتهم وفكرتهم عن الحياة، من حولهم وتوظيفها توظيفاً عملياً يخدم مصلحة هؤلاء الأطفال ومجتمعهم في الحاضر والمستقبل.

كما تتناول الأسلوب الذي يتعلمون به ويكسبون منه خبرتهم وتجربتهم في الحياة كيف يعيشون؟ وكيف ينمون ويتطورون؟ مما يجعلنا نقف أمام السؤال الذي يطرح نفسه، وهو كيف يتأتى لنا ذلك؟

هناك من يعتقد أن الإجابة عن مثل هذا السؤال تتطلب المزيد من المعرفة عن الدماغ والوقوف على أسرارهِ، كيف ينمو؟ وكيف يعمل؟ وكيف يتطور؟ ومم يتركب؟ وما الوظائف التي يقوم بها وما علاقته بأجهزة الجسم الأخرى وما تأثيره على كل منها؟ وتأثير كل منها عليه وتجاوبها معه؟.

إلا أن الأبحاث التي جرت في هذا المجال لا تزال ضيقة محدودة، لم تترك أثراً ذا بال على المدرسة والعمل فيها وأكثر ما هو معروف عن هذا الأمر حتى الآن أن الجانب الأيمن من الدماغ يقوم ببعض أنواع التفكير، في الوقت الذي يقوم فيه الجانب الأيسر منه بالأنواع الأخرى، غير أن من أكتفى بالاعتماد على هذه النظرية في العمل على تجديد المدرسة وتطويرها لم يحرز في ذلك أي تغيير جوهري أو تقدم ملحوظ في هذا المجال، ويبدو أن من غير المحتمل أن يحدث في المستقبل القريب أي تغيير جوهري في عمل المدرسة بسبب ما يطرأ على عمل

المسئولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

الدماغ من نظريات جديدة وآراء مستحدثة كما أن النظريات نفسها في هذا المجال تتطور وتتغير بشكل أسرع مما نستطيع به أن نلزمها ونتفاعل معها.

وهناك فكرة قديمة مؤداها أن مهمة المعلم، والعمل الرئيس له، هو أن يجعل العالم من حولنا وما فيه من ظواهر وأحداث، أمراً يمكننا فهمه والوقوف على حقائقه وأسراره، فما الذي طرأ على هذه الفكرة يا ترى؟

إن مختلف أنواع المعرفة لا تنمو في مناطق معينة من الدماغ ومحددة، وإنما تنمو في مناطق متعددة منه، وليس في منطقة واحدة، أو مناطق متعددة تقف عندها ولا تتعدها حتى وإن كانت هذه المعرفة بداية مراحلها الأولية والأساسية، وعليه فإننا نخطئ حين نقول:

إن معرفتنا بالحساب موجودة في منطقة معينة من الدماغ محددة، لا تتعدها، وبخاصة إذا ظهر عند الطفل قصور أو عجز في واحدة أو أكثر من العمليات الحسابية الأربع، الجمع والطرح والضرب والقسمة، وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا المجال: إن هناك في الدماغ منطقة أو مناطق تالفه لها أثرها وأهميتها في القيام بالعمليات الحسابية على اختلاف أنواعها وأشكالها. وحين نقف على حقيقة هذا الخلل نقوم بالعمل على إصلاحه وتلافيه والذي قد يكون في أكثر من منطقة معينة ويرجع إلى أكثر من سبب واحد. وعندها نقوم بعملية الإصلاح بشكل مؤكد لا تحوم حوله الشكوك ولا تعلوه الشبهات.

إن ظاهرة النمو والتطور عند الطفل هي الظاهرة الغالبة التي تأخذ بها، ونوليها من العناية والاهتمام للوقوف على خصائص مرحلة الطفولة، ومالها من خصائص وميزات تختلف عما لغيرها من مراحل النمو المختلفة الأخرى من

خصائص وميزات. تتأثر بها شخصية الطفل، وكيانه الخاص، وكذلك ما عنده من مواهب، وقد تكون الفروق الفردية في هذه المرحلة المبكرة من العمر أقل أثراً، وأقل أهمية مما ستكون عليه في مراحل الطفولة المتأخرة.

إن للأطفال القدرة على أن يتعلموا ما هو ضمن استعداداتهم، وقدراتهم الفطرية، إذا ما توافر لهم جو تربوي يسوده الود والمحبة ويغلفه العطف والحنان، والثقة المتبادلة مع الكبار الراشدين الذين يرعونهم ويقومون على تربيتهم وتنشئتهم. كما يكشفون لنا في ظل هذه الظروف ما يحبون أن يتعلمون، وما يميلون إليه، وما ليس لديهم أي اهتمام به، وبمعنى آخر يكشفون لنا عن المجالات والحقول التي يمكن أن يبدعوا فيها ويظهرون فيها تفوقاً ملحوظاً، وتلك التي سيكون للفشل عندهم فيها النصيب الأوفى، والحظ الأوفر.

ثانياً: الطفولة المبكرة

من المؤكد أن مرحلة الطفولة المبكرة من أهم وأكثر المراحل تأثيراً في مستقبل الفرد والمجتمع.

ويجمع المفكرون التربويون على أنها مرحلة تكوينية يتم فيها بناء ملامح الشخصية السوية... وكذا اكتساب العادات التفاعلية المتصفة بالثبات في البيئة الاجتماعية والطبيعية.

فالطفولة المبكرة مرحلة تبدأ من نهاية السنة الثانية وتنتهي بنهاية السنة الخامسة ، وفيها يحتاج الطفل إلى توفير بيئة اجتماعية تضمن عوامل التربية الرشيدة التي تساعد على إنماء شخصيته وتكوينها ، ولن يستطيع الوالدان والمربون تهيئة هذه البيئة دون فهم خصائص مراحل النمو ومطالبه.

ومرحلة الطفولة المبكرة تعتبر ذات أهمية بالغة وخطورة في حياة الفرد فهي أشبه بمراحل الأساس للبناء ، فإذا كانت أساسيات البناء قوية كان البناء متيناً ، وإذا كانت الأساسات غير قوية كان البناء هشاً قابلاً للتصدع والهدم بسهولة .

ثالثاً: أهمية مرحلة الطفولة المبكرة عالمياً

مرحلة الطفولة أهم مراحل نمو وتكوين شخصيته، ففيها يصل الفرد إلى درجة معينة من حيث القدرة على تحقيق التوافق والاستقرار والاستمتاع بأوجه الحياة المختلفة... ومنها ينطلق لتكوين أسرة سليمة مساهماً في تنمية مجتمعه ووطنه مدركاً مسؤوليته كمواطن يدفع عملية التطور والتحديث مستقبلاً ومنفذاً لبرامج التنمية في مجتمعه. وهي - أي مرحلة الطفولة المبكرة - المرحلة التي تكون وترسم ملامح الشخصية لما سيكون عليه الفرد مستقبلاً، ففيها تتشكل العادات والاتجاهات وتفتح القدرات وتنمو الميول وتنمى الاستعدادات وتتطور القيم والمهارات وخلالها يتحدد مسار نمو الطفل جسدياً وعقلياً وروحياً ونفسياً واجتماعياً وصحياً وحسياً طبقاً لما يتوفر له من خلال الخبرات والمواقف التي يتعرض لها في بيئته المحيطة، بعناصرها : التربوية والثقافية والصحية والاجتماعية والخلقية.

الذكاء الفطري والعبقري ليست قصراً على شعب أو جنس أو فرد... هذه حقيقة علمية أثبتتها الدراسات والبحوث الميدانية... فهو أي الذكاء الفطري موروث لأفراد الجنس البشري كل بمقداره ولكن المدى الذي يمكن أن يصل إليه

المسئولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

الفرد من خلال تفاعله مع بيئته هو الذي يجعل شعباً يتفوق على شعب وأمة تفوق أمة إنتاجاً وابتكاراً وإبداعاً.

وعندما نتحدث عن بيئة الطفل فأننا نقصد بالضرورة كافة العناصر المساهمة في تنشئته والمشبعة لحاجاته من تغذية سليمة ورعاية صحية ونفسية وروحية وتربوية وثقافية.

يبقى أن نؤمن بأن هذه المرحلة الهامة من حياة الطفل قد أوردت لها فوزية دياب ثلاثة أسباب دعت إلى الاهتمام بها واعتبرتها أهم من مراحل النمو الأخرى لدى الفرد وهذه الأسباب هي:

1- أنها مرحلة قبلية لما بعدها ويليهما من مراحل النمو... بل هي الأساس الذي تركز عليه حياة الإنسان وتبنى شخصيته وتعد، ليكون صانعاً للحياة، فاعلاً، مؤثراً في مجتمعه، ومتأثراً به.

2- فترة حساسة... فالطفل فيها ليده قابلية للتعلم والاكتمساب والتطور ضمن مجالات وخصائص نموه وحاجاتها فمخ الطفل يكون نمون الأسرع في السنة الأولى ثم تقل سرعة نموه نسبياً وبالتدرج بعد ذلك وهذا النمو السريع في جهاز الطفل العصبي مقترن بالمرونة والقدرة الكبيرة على التعلم وقابليته للتأثر بالعوامل والمؤثرات المختلفة. وفي هذا المعنى يقول ارنولد جيزل (A.Gesell): ((لن يتاح أبداً مرة أخرى للعقل والخلق والروح، أن تسير قدماً بنفس السرعة التي كانت تسير بها في الفترة التكوينية التشكيلية لما قبل المدرسة. ولن يتاح أبداً

للعقل مرة أخرى نفس فرصة باكورة الطفولة في إرساء أسس الصحة العقلية)).

3- مرحلة الخبرات والانطباعات الأولى... يصدق هنا قول العلماء السابقين من أن عقل الطفل في هذه المرحلة صفحة بيضاء وكل ما ينقش عليها ويحفر يؤثر دوماً في خبراته التالية لأنها تترك أثارها في جهازه العصبي، وليس غريباً أن نجد العلماء يلجأون إلى مجموعة الخبرات والعادات والاتجاهات التي اكتسبها الفرد في مرحلة الطفولة الأولى كإيضاح وتفسير لأسباب حالة الفرد التي هو عليها في الكبر.

((وقد دلت مقارنة تواريخ حياة من خرجوا من الحرب منهارين في أثر أمراض نفسية، إن المشاكل السلوكية في طفولتهم، كالمخاوف الشاذة واضطراب النوم والتبول القسري، كانت أكثر بثلاث أمثالها منها عند من خرجوا من الحرب سالمين)).

لذا فالرأي القائل بالبحث عن مصدر العلة لدى الكبار في خبرات ا لطفولة عندهم رأي صائب، فبذور السعادة والشقاء عند الكبار تكمن في طفولتهم.

ومرحلة ما قبل المدرسة هي في الأساس مرحلة الطفولة المبكرة من (3- 6) من حيث المنظور النمائي وهي تستغرق (مرحلة الحدس) في نظرية بياجيه و ((مرحلة الإحساس بالمبادأة في مقابل الإحساس بالذنب)) في نظرية اريكسون)).

ويورد البيلاوي سمات كثيرة لهذه المرحلة منها:

المسئولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

✓ رياض الأطفال هي مرحلة ما قبل المدرسة: أي هي الفترة السابقة لالتحاق الطفل بالمدرسة الابتدائية والتي تهيئه للتفاعل مع القيود والأنظمة والتعليمات.

✓ رياض الأطفال هي (مرحلة ما قبل جماعات الأقران): فهي المرحلة المناسبة لتفاعل الفرد مع مجتمعه ممثلاً بأقرانه وغيرهم من أفراد المجتمع وما يتطلبه ذلك من توافق في عمليات السلوك الاجتماعي.

✓ رياض الأطفال هي ((مرحلة الاستكشاف)): ففيها يسعى الفرد إلى التعرف على عناصر بيئته وتفاعل علاقاتها مع بعضها البعض ويحاول أن يجد موقعه كجزء منها.

✓ رياض الأطفال ((مرحلة حساسة)) ((ومرحلة حرجة)): فهي من أكثر المراحل التي يواجه فيها الطفل صعوبات ومشكلات فهو في الطريق لتكوين شخصية خاصة به، مبدئياً النزعة إلى الاستقلالية والاعتماد على النفس، فهو كثير الغضب، عدواني أحياناً عنيد، سلبي، غيور.

✓ رياض الأطفال مرحلة (مستهدفة) لبعض الاضطراب وعدم الاتزان: فهو يسعى إلى التوافق مع البيئة المحيطة به وضغوطها، ويتطلب ذلك من القائمين على رعايته الحكمة في أساليب التعامل معه حرصاً وردعاً لعدم وقوعه فريسة للاضطرابات النفسية والانفعالية والسلوكية.

✓ رياض الأطفال مرحلة (مرنة): فيها يكون الطفل أكثر استجابة لتعديل سلوكه فهو قابل للتغير والتعديل أكثر من أي مرحلة نمائية أخرى.

✓ رياض الأطفال مرحلة (حساسة للتعليم ولاستيعاب الخبرة): التي يتعرض لها الأطفال أو يعرضهم لها من حولهم .

((تكشف بعض النظريات والأبحاث الفسيولوجية، وفي مقدمتها أعمال العالم الكندي (دونالد هب) 1949، أن الدماغ الإنساني في حالة دينامية نشطة، ويميز نوعاً من التعلم المبكر في الطفولة يؤدي إلى تنشيط فعالية عمل الدماغ . وهو ما يسميه بالتعليم الأولى . تتشكل في سياقها أنماط للنشاط العصبي الكهربائي تؤثر في نشاط التعلم لدى الطفل وفي استجابته لخبرات التعليم في المستقبل .

لهذا تعتبر سنوات ما قبل المدرسة مرحلة مثلى للتعلم ولتوسيع ما يعرف بـ (إمكانات التعليم) (LearningPotentials) لدى الطفل، ولتحقيق النمو بأقصى (سعة) لطاقت العقل.

وقد قام جلبرت دي لاندشبر ((بدراسات ميدانية وملاحظات فعلية دامت خمسة وعشرين عاماً في البلدان النامية، وقد أصدر تقريراً جاء فيه: ((أمنت إيماناً عميقاً بأنه كلما شرعت مراكز للتعليم قبل الابتدائي مزودة بالمعلمين الأكفاء في العمل بالبلاد النامية، فأنها تكون مراكز لتنمية المواهب)). ((أقترح تطوير دور الحضانة ورياض الأطفال وفتح أبوابها لجميع الناس . و يقيني أن للسنوات الأولى من الحياة تأثيراً كبيراً على نمو الرجال والأمم)). ((لو كنت وزيراً للتعليم بإحدى الدول النامية لما هدد لي بال حتى أرى بجانب فريقاً يؤمن حقاً بأهمية التعليم قبل الابتدائي)).

رابعاً : خصائص الطفولة المبكرة

ومن أبرز خصائص هذه المرحلة :

1- تكوين الضمير (الأنا الأعلى):

ويتكون خلال التنشئة الاجتماعية وإطارها الأخلاقي للأسرة في المواقف الحياتية اليومية التي يمر بها الطفل واستجابة والديه لما يفعل المتمثلة في الرفض أو القبول لسلوكياته ، فينشأ خلال ذلك رقيب داخلي (الضمير) يمنع الطفل عن الخطأ ويدفعه للصواب ، وتلعب القدوة دوراً هاماً في تكوين الضمير ، ذلك أن عامل التقليد الملازم للنمو يجعل الطفل يحاكي ما يراه من تصرفات أكثر من أمثاله لما يأمرونه به فمثلاً مهما حذرناه من الكذب ومنعناه عنه وعاقبناه عليه وأحد والديه أمامه يكذب فلن يمتنع عن الكذب ونجده وهو كبير إنسان لا أمانة له (يكذب ، يسرق ، يغش).

2- وضع أسس السلوك الاجتماعي :

فالطفل في هذه المرحلة (ذاتي) يدور حول نفسه أناني بطبعه ، العالم من حوله لا يسع سواه فهو لا يستطيع تقبل وجود الآخر ، ومن خلال النمو الاجتماعي ورعايته من قبل الوالدين والمربين يكتسب الطفل السلوك

الاجتماعي، وعلى نهاية هذه المرحلة يتحول الطفل تدريجياً من كائن لا اجتماعي إلى كائن اجتماعي فتخف أنانيته ويتعلم إقامة العلاقات الاجتماعية ، ويستوعب وجود غيره ويكون أقدر على التفاعل إلا أن الذاتية مازالت موجودة لديه . ومما يساعد على تخلص الطفل من الذاتية ويكسبه القدرة على التفاعل والتحول إلى كائن اجتماعي ، وجوده في جماعة يتعامل ويتفاعل معها ، لذلك من المفيد جداً زهاب الطفل إلى الروضة ، فالهدف الأساسي منها هو النمو الاجتماعي للطفل وليس للقراءة والكتابة .

3- غرس القيم والمثل العليا وتكوين الاتجاهات:

هذه المرحلة هي الأرض الخصبة الطيبة التي يبذر فيها الوالدان والمربون ما يشاءون من القيم والمثل العليا للسلوك والاتجاهات ، وذلك من خلال التنشئة الاجتماعية والتطبيع عن طريق أنشطة وبرامج اللعب الذي يشكل مدخلاً أساسياً لنمو الطفل معرفياً وعقلياً واجتماعياً وانفعالياً وحركياً وخلفياً ، وكذلك القصص والحكايات التي نرويها للطفل وعلى الوالدين والمربين التدقيق في اختيار القصة والحكاية التي سوف تحكى للطفل، وأيضاً الانتباه بشدة لما يراه الطفل من أفلام الكرتون واختيار ما يدعم ويثبت ما نزرعه من قيم ومثل في الطفل ، وللقوة دور كبير في غرس القيم وتثبيتها وتكوين الاتجاهات وللوالدين أكبر الأثر في التوجيه الوجداني للطفل.

4- التعرف على البيئة المحيطة والعالم :

من نعم الله على الإنسان أن جعل هذا الدافع (حب الاستطلاع) غريزي حتى يستطيع التعرف على العالم من حوله وحب الاستطلاع يبدو واضحاً لدى الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة ، ذلك أن الطفل في حاجة ماسة للتعرف على البيئة من حوله حتى يستطيع إنشاء العلاقات والتفاعل معها ومن خلال محاولته التعرف على الأشياء من حوله يقوم بعمليات الفك والتركيب إلا أنه أحياناً يفك الشيء ولا يستطيع تركيبه مرة أخرى مما يجعل الناس من حوله يظنون أنه مخرب(لجهلهم خصائص نموه) فالطفل مكتشف وليس مخرب ولهذا يجب مساعدته وإشباع فضوله وحاجته للمعرفة ، وعلى نهاية المرحلة يلجأ الطفل لإلقاء الأسئلة بدلاً من تفكيك الأشياء فهو الآن لديه حصيلة لغوية تمكنه من إلقاء الأسئلة التي تشبع فضوله وعلى الوالدين والمربين عدم التبرم أو الضيق من أسئلة الطفل الكثيرة جداً لئلا يلجأ لأخذ ما يريده من معرفة بطريقته السابقة أو الالتجاء لغيرهم لإشباع فضوله وفي ذلك أشد الخطر ولا بد للوالدين والمربين من إجابة الطفل على كل أسئلته إجابات صحيحة وفي مستوى عقله ويجب إثراء بيئة الطفل حتى تتسع مداركه .

5- اكتساب اللغة ومفرداتها :

فهو يكتسب الكلمات ممن حوله في المنزل أو الروضة وعلى نهاية هذه المرحلة يكون لديه حصيلة تزيد عن 2000 كلمة تمكنه من التفاعل الاجتماعي والتعبير عن رغباته .

ويتعلم الطفل هنا اللغة الأم وحدها دون لغة أخرى ، صحيح أن عقل الطفل قد يستوعب أكثر من لغة ويمكنه من التعلم لأكثر من لغة ، ولكن هناك خطورة نفسية تكمن في إنشطار الانتماء النفسي الذي يتبع اللغة ، والسطحية في كلا اللغتين وما إلى ذلك من مضار ، والمهم أن يتعلم الطفل لغته الأم فقط في هذه المرحلة وأن يعطي فرصة استخدام اللغة وذلك عن طريق محاورته ومناقشته في أمور موضع اهتمامه ، ولابد من إعطائه فرصة التعبير عن رأيه وعن نفسه ونشعره بتقديرنا لما يقول ونشجعه على الاستمرار حتى لو لم تكن آراؤه على المستوى المطلوب أو ليس لها علاقة بالموضوع ، فنحن مهتمنا تعليمه أسلوب الحوار وغرس الثقة في نفسه ، ولغة الطفل في هذه المرحلة تتمركز حول الذات ويغلب عليها السذاجة وعدم الدقة في بداية المرحلة ولكل طفل مفاهيمه وتراكيبه اللغوية .

6- تأكيد الذات :

في هذه المرحلة يسعى الطفل لتأكيد ذاته ووسيلته في ذلك العناد (لدرجة أن هذه المرحلة سميت بمرحلة العناد) فالطفل هنا هدفه تأكيد ذاته من خلال إصراره ورفضه الطاعة للكبار ، كذلك نجده يسعى للاستقلال والاعتماد على نفسه كتأكيد لذاته وأنه كبير ، وعلى الوالدين مساعدته في ذلك ويقبل عناده بتفهم وعدم مقابلة العناد بالعناد لئلا يثبت فيه ويصبح العناد سمة في شخصيته مستقبلاً ولابد أن يفهم الوالدان والمربون أن عناد الطفل ليس سوء أدب ويتجنبوا العقاب وخاصة العقاب البدني ، ويعتمدوا على محاوره الطفل

المسئولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

وإفهامه الخطأ وتعليمه السلوك القويم ، فالعقاب هنا لا يعالج العصيان أو العناد بقدر ما يشعر الطفل بالقسوة والرفض له وعدم حبه وهذا شعور قاسٍ جداً على الطفل ويعلمه الكراهية والعدوان والحقد .. الخ ويظهر ذلك في سلوكياته ويزيد عناداً .. الطفل في هذه السن يحتاج للشعور بالحب ممن حوله وتقبله ، وهو في أشد الحاجة إلى مساعدة الوالدين على مزيد من الاستقلالية والاعتماد على النفس ومزيداً من تأكيد الذات والثقة في نفسه ، ولكي نكسبه الثقة في نفسه نقوم (على سبيل المثال) بتكليفه بمسؤوليات بسيطة يستطيع القيام بها مما يشعره بالثقة في نفسه ، ونتجنب إعطاء مهام تفوق قدرته لأن ذلك سوف يشعره بالعجز والضعف والدونية.

7- تكوين العادات الفسيولوجية والسلوكية وتعلم المهارات :

ففي هذه المرحلة يتعلم الطفل ضبط الإخراج ، ويكتسب عادات الأكل (كيف ، ومتى ، وماذا يأكل)، وأيضاً عادات النوم (كم ، متى ، وكيف ينام) وتتميز هذه المرحلة بأن الطفل يكتسب أيضاً خلالها المهارات اللازمة التي تساعد على التفاعل الاجتماعي السليم وقضاء حوائجه وتمنحه مزيداً من الاستقلال الذي يريده ، وبذلك يشعر بذاته وينعم بالتكيف الشخصي والاجتماعي ، واكتساب المهارات يعتبر ميزة شخصية كبيرة للطفل ، كما أنها تساعد على الاعتماد على نفسه وتؤكد له قدرته على القيام باتصالات اجتماعية من خلال اللعب ، وكلما كان لدى الطفل مهارات أكثر كانت صلاته الاجتماعية أكبر ، واكتساب المهارات قيمة كبيرة من حيث تأثيرها على

مفهوم الذات التي تتكون في هذه المرحلة ، كما أنها تكسبه مزيداً من الثقة في نفسه .وقد يعيق اكتساب الطفل للمهارات: الحماية الزائدة من الوالدين (كأن يكون طفلهم الوحيد مثلاً) أيضاً الخوف من الحوادث ، وكثرة المعوقات البيئية، وأيضاً نقص التدريب (كأن تكون الأم مشغولة في عملها أو دراستها وليس هناك من يتولى تدريب الطفل) لذلك على الوالدين والمربين توفير فرص تدريب وإثراء بيئة الطفل

خامساً: أهمية الطفولة المبكرة

تعود أهمية الطفولة المبكرة إلى أنها:

1. تعتبر السنوات الأولى من حياة الأطفال حجر الأساس لتطورهم ونمائهم طوال حياتهم.
 2. تشكل السنوات الأولى من حياة الطفل مرحلة أساسية في تكوين قدراته الذهنية و نمط شخصيته، وكذلك سلوكه الاجتماعي.
 3. الأسرة هي معلم الطفل الأول، لذلك يجب تدعيمها و إمدادها بالمعرفة والمهارات، لتمكينها من توفير بيئة صحية مليئة بالعطف والحنان ومستثيرة لقدرات الأطفال ونمائهم، و يتحقق ذلك عن طريق البرامج الصديقة للأطفال الموجهة لتلبية احتياجات الأسرة والمرتكزة على المجتمع.
 4. تشكل هذه المرحلة العمرية دون التاسعة حوالي 27.6٪ من مجموع سكان الأردن.
- ولأغراض البرمجة تتكون رعاية هذه المرحلة الهامة من الحياة من أربعة مجالات رئيسية هي:

الفصل الأول

1. النمو الجسمي والصحي.
 2. التطور العقلي والانفعالي والاجتماعي.
 3. البيئة المحفزة لنمو وتطور الأطفال والخدمات المتوافرة للطفولة.
 4. معارف ومهارات واتجاهات الأهل ومقدمي الرعاية والمجتمع.
- وتأتي برامج تنمية الطفولة المبكرة المتكاملة، كمنهج أساسي في عملية التخطيط للبرامج الخدمية التي تدعم التنمية الشمولية للأطفال.

سادساً: الطفولة المبكرة... أخطر مراحل النمو العقلي

تعد مرحلة الطفولة المبكرة مرحلة مهمة في حياة الطفل، حيث إن نموه فيها يكون سريعاً وبخاصة النمو العقلي، وتشهد هذه المرحلة مجموعة من التغيرات التي تطرأ على الطفل كالاتزان (الفسولوجي) والتحكم في عملية الإخراج وزيادة الميل إلى الحرية، ومحاولة التعرف إلى البيئة المحيطة، والنمو السريع في اللغة، ونمو ما اكتسب من مهارات الوالدين، وتكوين المفاهيم الاجتماعية، وبزوغ الأنا الأعلى، والتفرقة بين الصواب والخطأ والخير والشر، وبداية نمو الذات وازدياد وضوح الفوارق في الشخصية حتى تصبح واضحة المعالم في نهاية المرحلة.

وفي هذه المرحلة ينمو وعي الطفل بالانفصال والاستقلالية، فلم يعد ذلك المخلوق الذي كان يحمل على الكتف، أو يحبو، إذا أراد أن ينتقل من مكان إلى آخر، بل صار الطفل الآن قادراً على الوقوف على قدميه والتحرك بوساطتهما ما يجعله يعتمد كثيراً على التجوال هنا وهناك، مستكشفاً ومنقباً في اهتمام واضح، بل إنه يخاطر في تنقله، والمخاطرة تفتح له آفاقاً جديدة للمعرفة، ويستطيع هنا استيعاب الظواهر الخارجية، وفيها يتعرف إلى خواص الأشياء وعلاقتها ببعضها بعضاً.

أي أن الطفل ينجذب إلى الاتصال بالعالم المحيط ومكوناته لاستكشافه والتعرف إليه، فهو في هذه المرحلة يكتسب معلوماته عن العالم الخارجي عن طريق حواسه، وقد أثبتت البحوث أن الحواس تولد شعوراً باللذة عند الطفل أكبر مما تولده عند البالغ.

والطفل في هذه المرحلة يستخدم الأسئلة والاستفسارات الموجهة للمحيطين به لمعرفة المزيد عن العالم الخارجي، حيث يكون كل طفل لنفسه ما يُسمى ببنك المعلومات، فاللحاء المخي في هذه الفترة يكون في غاية الحساسية، وهذا يجعل من السهل تخزين المعلومات والخبرات ورموز الأشياء لاستخدامها في اكتساب الخبرات في المستقبل وتفسيرها والتعامل معها.

وتعتبر هذه المرحلة العمرية أسرع مراحل النمو اللغوي تحصيلاً وتعبيراً وفهماً، حيث ينزع التعبير اللغوي نحو الوضوح ودقة التعبير والفهم ويتحسن النطق ويختفي الكلام الطفولي مثل الجمل الناقصة والإبدال والثأثة وغيرها.

فالطفل خلال هذه المرحلة يتمكن من اكتساب ما يقرب من خمسين مفهوماً جديداً كل شهر وبذلك يضيف هذه الثروة الهائلة إلى محصوله اللفظي بما يساعده على الاتصال بالآخرين وفهمهم والتجاوب مع متطلبات الحياة الاجتماعية، كما أنه يعمل كعنصر أساسي في النمو العقلي السليم للطفل.

ويتصف الطفل في هذه المرحلة بالخصوبة المفرطة في الخيال والقدرة على الربط بين الأسباب ونتائجها، بالإضافة إلى أن النمو العقلي في هذه المرحلة يكون في منتهى السرعة حيث أكد العالم النفسي (بلوم) أن 50٪ من النمو

المسؤولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

العقلي للطفل يتم فيما بين الميلاد والعام الرابع من عمره، و3% منه يتم فيما بين العام الرابع والثامن من حياة الطفل.

وفي هذه المرحلة يكتسب الطفل الكثير من المعلومات، وتتكون لديه المفاهيم المعرفية المختلفة التي تساعده على اللحاق بهذا الركب الهائل من المعلومات وخصوصاً أننا نعيش في عصر الانفجار المعرفي.

ويستمر النمو العقلي للطفل في هذه المرحلة بمعدلات سريعة، ففي هذه المرحلة ينمو لدى الأطفال نماذج من المهارات التي تسمى بالذكاء العام، وذلك إضافة إلى استقرار وثبات مهارات أخرى مثل الإدراك والذاكرة والتعلم وحل المشكلات، وفي هذه المرحلة يتلقى الطفل للمرة الأولى معلومات عن كل ما يحيط به كما أنه يبدأ في تكوين المفاهيم المعرفية المختلفة ما يوضح ضرورة تعريض الطفل في هذه المرحلة لأكبر قدر ممكن من المعلومات والمفاهيم المعرفية المختلفة بطريقة مبسطة وصحيحة لتسهيل عليه عملية اكتسابها، ولتضمن له نمواً معرفياً سليماً، حيث إن تلقي الطفل في هذه المرحلة لأي معلومة خاطئة يصعب تغييرها لاحقاً ما يؤثر على ثقافة الطفل، كما أن حرمانه من التعرض لهذه المعلومات والمفاهيم في هذه المرحلة يؤثر سلباً على نموه المعرفي.

وتؤكد الاتجاهات المعاصرة في تربية أطفال ما قبل المدرسة، على أهمية تعريض الطفل للمثيرات الحسية المختلفة، وإكسابه المفاهيم المناسبة بما يساعده على اللحاق بهذا الركب الهائل من التطور التكنولوجي والعلمي المعاصر حتى لا نضيع عليه الوقت، وحتى لا نهدر الكثير من طاقاته وقدراته

العقلية وحتى لا نفقده الكثير من الخبرات قبل أن يصبح في عمر الحاق بالمدرسة.

ويبدأ الطفل في تكوين المفاهيم المعرفية في سن مبكرة فبعد مرور عامين من حياته يكون قد كوّن مفاهيم بسيطة عن ذاته وعن الوجود المادي من حوله، ولأن المفاهيم تتكون من الخبرات التراكمية المكتسبة لأنها تبدأ بسيطة للغاية ومُحسَّنة من الواقع المادي للطفل.

ويحاول الطفل في هذه المرحلة أن يعيد بناء كل ما تم تنميته في السنوات الأولى من حياته سواء كان من النمو في اللغة أو في العمليات الرمزية، إلا أن إدراك الطفل للمفاهيم التي يبنّيها مازال هشاً في الحدود التي تظل هذه المفاهيم في منتصف الطريق بين تعميم المفهوم وفردية العناصر التي تكون المفهوم من دون أن يصل الطفل إلى مستوى أحدهما بسبب تذبذب وعدم استقرار قدراته التصويرية، ولأن إدراك الطفل للمفهوم في هذه المرحلة من التعلم يرتبط بتكوين مهارات وممارسات يقوم بها الطفل، ويصحح منها شيئاً فشيئاً حتى يكتسب تعميمات وقواعد ترتبط بالمفهوم الذي يدركه في مرحلة لاحقة.

وعملية تكوين المفاهيم عند الطفل عملية لها مدخلات تتمثل في الخبرات التي يستمدّها الطفل من الأسرة وجماعة الأقران والمدرسة ووسائل الإعلام وبيئته المحيطة به.

ويجري الطفل لهذه المفاهيم عمليات الإدراك والتصنيف ووضعها في فئات من المعلومات طبقاً للخصائص المشتركة والمتشابهة فيما بينهما، ويخرج من ذلك بعدد من المفاهيم والتوجهات الجديدة تجاه حياته، ويتبلور من خلالها

المسؤولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

سلوكه وتصرفاته، فكل فرد ينظم حياته على أساس المفاهيم التي تحويها ذاكرته والعلاقة بين هذه المفاهيم، والمتغيرات التي تحكم هذه العلاقات.

والمفاهيم عند الطفل تتضمن دائماً شيئاً أكثر من المعنى الخاص لشخص بعينه أو شيء بعينه، أو حادثة بعينها، أو موقف بعينه، وعلى سبيل المثال مفهوم (أم) ينمو عن طريق خبرة الطفل مع أمه هو وخبراته مع نساء أخريات يقمن بدور الأم معه ومع أطفال آخرين.

ونخلص مما سبق إلى أن تكون المفهوم عند الأطفال ما هو إلا عملية توصية اجتماعية تتطلب الالتقاء بالنماذج الكبرى لتمده بخبرات عوضية هادفة لأن الاقتصار على خبراته الشخصية المباشرة يؤدي إلى أن يصبح الطفل محدود الإمكانيات، والنمو النفسي السليم يحتاج إلى الجمع بين الخبرات المباشرة والخبرات العوضية.

سابعاً: الاستثمار في الطفولة المبكرة: خيار القيادة المسؤولة

مردود الاستثمار على الأطفال

- إدراكهم بأن لهم حقوقاً في الحياة وفي النماء والتطور.
- تطور أفضل لقدراتهم الذهنية والذكاء والشخصية والسلوك الاجتماعي.
- دعم قدراتهم العاطفية والمعنوية.
- فرص لتحصيل مدرسي أفضل في المستقبل.
- نجاحهم في حياتهم كشباب وشابات في المستقبل.

المجتمع

- البدء مع الطفل هو الطريق الحقيقي نحو المستقبل، فغرس القيم والحفاظ عليها وتنقلها يجب أن يبدأ من الطفولة.
- التقليل من الاختلافات الاجتماعية، والتفاوت الطبقي، والتمييز في الأدوار الاجتماعية بين الجنسين.

المسؤولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

الحكومة

- زيادة الإنتاجية بتطوير قدرات الطفل البدنية والذهنية وإكسابهم مهارات تساعد على التكيف التكنولوجي، وبالتالي خلق فرص عمل وسوق عمل جديدة.
- تقليل البطالة وخفض التكاليف الصحية، عند البدء في تنمية الطفل منذ سنواته الأولى صحياً وغذائياً ونفسياً واجتماعياً.
- توفير نفقات التعليم وبرامج التقوية الدراسية في حال تقليل التسرب والرسوب، وذلك بالبدء ببرامج تعليمية مناسبة منذ السنوات الأولى من عمر الطفل.
- زيادة معدل المردود : عائد كل دينار يصرف على تنمية الطفولة المبكرة هو سبعة أضعاف.
- تحسين فعالية برامج الصحة والتغذية والتعليم والمرأة عن طريق ربطها ببرامج تطور الطفل. وخاصة البرامج الخاصة بتنمية المرأة ومشاركتها في مشاريع توليد الدخل.
- تحسين وضعية الأردن في منظومة الاقتصاد العالمي ومواكبة التغيرات الاجتماعية التي تصاحب تغيرات الوضع الاقتصادي.

الوطن

- تفعيل حقوق الأطفال، وبرامج التنمية البشرية المستدامة.
- كسر حلقة الفقر والعنف والمرض والتمييز بين الجنسين.

ثامناً: التعامل مع الأطفال أثناء الأزمات

يعتبر الأطفال أشد الفئات العمرية تأثراً بالأوضاع الناجمة عن الظروف الصعبة، ويرجع ذلك إلى قلة خبرتهم المعرفية والحياتية، ومحدودية آليات التكيف التي يمتلكونها، ناهيك عن أنهم يعيشون في عالم من الخيال الواسع الذي يصور لهم الأحداث بصورة أكبر بكثير من حجمها الحقيقي.

وتشمل آثار الظروف الصعبة عدة جوانب في حياة الطفل، تتمثل غالبيتها في التهديد الموجه نحو تلبية احتياجاته المادية والنفسية الأساسية، والتي تعتمد بشكل مباشر على أفراد أسرته والراشدين من حوله، ولذا فإن للبيئة المتوافرة له أهمية خاصة في مساعدته على استعادة قدرته على التكيف، والعودة إلى النمط الطبيعي. وعلى الرغم من أن الأطفال من مختلف الفئات العمرية يتأثرون بالأوضاع الصعبة، إلا أنه يبقى هناك تفاوت كبير بينهم في درجة وكيفية تأثرهم بها. ويعزى ذلك إلى مجموعة من العوامل الذاتية والموضوعية يمكن تلخيصها كالتالي:

1. يلعب إدراك الطفل للحدث الصعب دوراً رئيسياً في تحديد المعنى الخاص والذاتي لهذا الحدث بالنسبة إليه، وهذا يعني أن الذين يشاهدون منهم حدثاً معيناً يتأثرون به بطرق مختلفة بحسب المعنى

المسئولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

الخاص الذي يعطيه كل واحد منهم للحدث، وهذا الأمر يعتمد بدوره على المميزات الشخصية الخاصة بهم.

2. حدة الضغوط النفسية الناجمة عن الظروف الصعبة، والتي تستند إلى حجم ونوع التغيرات التي تطرأ على حياة الطفل وقدرته على السيطرة عليها.

3. الخصائص الشخصية للطفل - الذي يتعرض للأزمة تلعب دوراً مهماً في درجة تأثره بها. وتشمل هذه الخصائص:

- طبيعة مرحلته العمرية.
- أسلوب تعامله مع الوضع الصعب، ويشمل ذلك حدة القلق وقدرته على التحدث عن الحدث.
- وجود خبرة سابقة مهما كانت فيما يتعلق بأوضاع صعبة مشابهة أو غير مشابهة، مثل فقدان والتعرض للعنف وغيرها.
- المعنى الخاص الذي يعطيه كل طفل للحدث بحسب حصيلته المعرفية والتجارية والخيالية.

4. توافر جهاز الدعم العائلي والذي يلعب دوراً مساعداً أو معوقاً للطفل في عملية تكيفه.

كيف يختبر الأطفال الوضع الصعب؟

يختبر الأطفال والراشدون على حد سواء الحدث الصادم على شكل

ردود أفعال تؤثر على عدة نواح من حياتهم. ففي المرحلة الأولية ينتاب الأفراد شعور بعدم التصديق والترقب لحدوث ما هو أشد سوءاً، وتغلب عليهم مشاعر الخوف والقلق، والغضب والحزن بشكل مكثف، وقد يواجهون نوعاً من الجمود في مشاعرهم. وفي الأيام التالية قد يعمدون إلى تجنب ما يذكرهم بالصدمة المباشرة، بينما يقومون بمراجعة الحدث بشكل متكرر، ويتأثر (روتين) حياتهم اليومي فيشعرون بالتشتت وعدم القدرة على مزاولة نشاطاتهم اليومية كالسابق. وقد يصحب هذا الوضع مشاعر الذنب ولوم الذات، كما يجد معظم الأشخاص صعوبة في التركيز وفي الخلود إلى النوم، بينما يلجأ البعض الآخر إلى النوم المتواصل للهرب من مواجهة الواقع المؤلم ومشاعر العجز. وبالإضافة إلى ما سبق فإن ردود فعل الأطفال قد تتميز بما يلي:

- 1- الشعور بالخوف والقلق.
- 2- حدوث الكوابيس المتكررة التي تتخللها مشاهد الحدث.
- 3- النوم المتقطع.
- 4- ظهور سلوكيات عدوانية موجهة ضد الآخرين.
- 5- العزوف عن الطعام أو الإفراط في تناوله.
- 6- انخفاض الأداء المدرسي.
- 7- ردود فعل فسيولوجية مثل: التبول اللاإرادي وازدياد حالات الإثارة والتوتر.
- 8- ظهور حالات من الإمساك أو الإسهال.

المسئولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

- 9- التعلق القلق بالوالدين من خلال الخوف من الانفصال عنهم.
- 10- تضائل الاشتراك في النشاطات الخارجية وقلة اهتمامه باللعب.
- 11- الخوف الواضح من البرامج التلفزيونية التي تحتوي مشاهد عنيفة.

إرشادات عامة في التعامل مع الأطفال أثناء الأزمات

1. يجب ألا يفترض الوالدان أنه ليس لدى الأطفال أي معرفة عن الأشياء التي سوف تحدث، وذلك لأن من المؤكد أنهم يعرفون أكثر مما قد يعتقد الوالدان. فالأطفال يكتشفون الأحداث من خلال متابعتهم للبرامج التلفزيونية أو من خلال تواصلهم مع الآخرين. ولذلك على الوالدين أن يقوموا بتصحيح المعلومات غير الكافية، أو التي تنقصها الدقة وسوء الفهم من دون اللجوء إلى تقديم أي شيء غير واقعي أو غير حقيقي.
2. يجب أن يتواجد الوالدان وأن يستمعا لأطفالهما، وأن يعرفوهم أنه أمر طبيعي أن يتحدثوا عن الحدث الصعب، وهنا يجب أن يستمعا لما قد يفكر فيه الأطفال ويشعرون به دون إبداء أي استخفاف أو سخرية، فمن خلال الاستماع يستطيعان أن يعرفا طبيعة الدعم الذي يحتاجه أطفالهما. كما يجب عليهما أن يكونا مستعدين للإجابة عن جميع أسئلة الأطفال حتى وإن بدت غريبة أو سخيفة.
3. يجب على الوالدين أن يتشاركا بمشاعرهما مع أطفالهما، وأن يخبروهم بأنهما يشعران أيضاً بالخوف والغضب من الأحداث، حيث إن ذلك يساعد الأطفال على أن يعرفوا أن الراشدين أيضاً يشعرون

بالضيق عند التفكير بالحدث القادم، وإذا ما أخبرهم الوالدان بمشاعرهما فيجب عليهما إخبارهم بالطريقة الصحيحة للتعامل مع هذه المشاعر دون أن يؤدي ذلك إلى زيادة مشاعر الاضطراب عند الأطفال.

4. يجب استخدام وسائل اتصال مختلفة لتسهيل عملية تعبير الأطفال عن مشاعرهم: وذلك بترك المجال لهم حتى يعبروا بحرية عما يجيش بداخلهم من مشاعر وأحاسيس، ومخاوف وأفكار، وتشجيعهم للتعبير عن أنفسهم بكل السبل كالرسم والكتابة واللعب من دون تدخل من الكبار بالمواعظ أو الإرشادات، فمقاطعة الطفل الذي يصف مشاعره لها آثارها السلبية. وعدم احترام هذه المشاعر لا يؤدي إلا إلى مزيد من الإحباط والاضطراب.

5. يجب مساعدة الأطفال على الشعور بالأمن والاطمئنان، فعندما تحدث الأمور المأساوية كالحروب مثلا، يبدأ الأطفال بالشعور بالخوف من أن ما قد يحدث في ساحة الحرب يمكن أن يحدث لهم، لذا فمن المهم للوالدين أن يجعلوا الأطفال يشعرون بأنهم بمنحى عن موقع الخطر وأنهم سوف يفعلون ما بوسعهم لحمايتهم.

6. يجب التركيز على مشاعر الخوف لديهم، فبعد أن يكون الوالدان قد جعلوا الطفل يشعر بالأمان والاطمئنان وبأنه ليس هناك أي مكروه سيصيبه شخصيا، فإنهما لا يجب أن يتوقفا عند هذا الحد، فقد أظهرت الدراسات أن الأطفال يشعرون بالحزن أو الغضب أيضا، وهنا

المسئولية الاجتماعية في الطفولة المبكرة

يجب على الوالدين أن يساعدوهم على التعبير عن هذه المشاعر، بالإضافة إلى تدعيم مشاعرهم بالتعاطف والاهتمام تجاه ما قد يتعرض له الآخرون.

محاذير يجب عدم الإقدام عليها

1. التخفيف عن الطفل ومشاعره باستعمال عبارات مثل «انس الأمر لقد انتهى كل شيء الآن»، وعوضا عن ذلك يمكن للوالدين أن يقولوا للطفل «نفهم بأنك قلق ونرغب في مساعدتك».

2. قول أي شيء غير حقيقي أو غير واقعي مثل «إن الحرب سوف تنتهي قريبا».

3. إثارة آمال وعود غير حقيقية أو توقعات يصعب تحقيقها.

4. الحدة والمقاطعة أو الاستهزاء والسخرية في أثناء النقاش مع الأطفال.

5. عدم ترك مشاعر الشعور بالإحباط والغضب تنعكس بشكل مباشر على تعامل الوالدين مع أطفالهما.

ولا بد من معرفة أن الطفل - وعلى الرغم من محدودية قدراته التفكيرية- فإن قدراته وحاجاته الشعورية قد تكون وصلت إلى مرحلة حساسة تحتاج عناية وتعاملا خاصا، لذا يجب عدم تجاهل الوالدين لها والانتباه لها بشكل دقيق، خصوصا في أوقات الأزمات.